بيان اليوم
الجمعة 5 يوليوز 2019 العدد : 8746

جمالية التفاصيل في رواية "فرح" للكاتب المغربي يوسف فاضل

بقلم: محمد أيت أحمد

تقع رواية "فرح" للروائي المغربي يوسف فاضل الصادرة عن دار الآداب في طبعتها الأولى سنة 2016، في حوالي 399 صفحة، بعيد من خلالها الكاتب تخييل ثمانينيات وتسعينيات القرن المنصرم بالمغرب، بما طبع تلك الفترة من نشاط سياسي وحقوقي وكذا بما ساد فصولها من وهن مجتمعي، من خلال العمل على تحويرٍ حدث بانورامي تمثل في تشييد جامع الحسن الثاني، وهو الحدث الأساس الذي يقودنا بولوقية تامة إلى عوالم نص نسج بإحكام، يتفاعل فيه التاريخي بالأدبي، والمتخيل بالواقعي. ويعكس طاقة المروي وإمكاناته في إعادة التاريخ وقراءة التاريخ من جديد.

يتمحض المسرود أساسا على سيرة شخصيتين رئيستين، تلاعبت الأقدار كما الصدف بمالها. شخصية عثمان، وهي التي تولت فعل السرد في قطاع يسير، تحكي فيما يشبه النوستالجيا عن تفاصيل معيشها اليومي بمعية أسرتها التي نشبت فيها نيران الحاجة وعجت بالمناقضات. كما تحكي عن كل الأشياء التي كانت علاقتها بها مرهونة بمدى فهمها لها.

قبل أن يصبح عثمان مقعدا ينتظر خلاص زوجته من تاوهات حملها، يحفر في ذاكرته بعيدا آخذا بال القارئ صوب حكايته مع صديقه كيكا، ومع فرح قدره الذي ظل ينتظره، ومع والده رمزا للخفاء والتجلي. ومع أمه حبيبة وخديجة، ومع صهره عبد الله الذي حبيبة.

أما الشخصية الثانية "فرح" وهي مركز الثقل في النص، فهي الفاتنة الهاربة القادمة من أزمور صوب الدار البيضاء، ملاحقة حلمها وهو الغناء، فلقت تبحث عن صديقتها نعيمة، وفي رحلة بحثها تصادف عثمان، فاهت خطاها حتى تأكد لها أنها تلاحق السراب، فقدت مالها وغاب عنها المحامي الذي طالما بقيت تنتظره. وظلت تتأرجح بين الحضور والغياب، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، ولم تترك وراءها سوى وشم طبع ذكرى عثمان واستعرها حتى أطلق عثمان المخيال وظل يروي ويروي بلا توقف.

وبين كل أطراف المرويات، يحضر فضاء مرجعي كمحط تجاذبات للمواقف والقيم، وهو مسجد الحسن الثاني بمحمولاته التاريخية والرمزية، إذ يمكن عده بمثابة وتد لا يستقيم الحكي من دونه، وكمعلن يدق في مخيلات كل الشخصيات، شاهدا على وضعها وانفعالاتها، حمولاتها وموتها، مآسيها وأفراحها، منذ مرحلة الشروع في تشييده إلى حين إعلان خلاء الحي المجاور له.

هكذا ترتمي رواية "فرح" ليوسف فاضل في أحضان محكيات متوازية لعل أكبر ما يسمها هو الاعتقاد والإبهام، حين تخوض في تفاصيل الهامشي وتدقق في اليومي المعيش، معلنة لا نهاية المروي من خلال إنعاش التاريخ المغربي، وبواسطة الاشتغال على الذاكرة من بعيد، قريبا من الأصيل والشعبي، بعيدا عن الحديث والمستحدث، في عالم حكائي تسوده فوضى التفاصيل، وتغلب عليه ترنيمة الشك، وتنتهكه الأسئلة دون أن يكلف توليد السؤال قطاع المحكي، عناء الإجابة ولا تكلفة الكشف والبوح.

> أن تعمل على شيطنة الحكاية هو أن تكون لك القدرة على وضع تفاصيلها، دون أن تتخطى عتبة الملل، بحيث تجعل القارئ يتلمس تلك الحاجة في المتابعة

لا شك أن الخطاب حينما يصل درجة بالغة التعقيد في إنتاج "الباروديا"، يولد السؤال ويكبح جماح الإجابات. يظهر ذلك جليا في خطى السارد المتألقة، وهو يرقب عن كثب وضع المشاز الذي يحياه ضمن نسيج من العلائق الإنسانية التي يتخيرها التشظي، وإزاء اصطدامه بهذا التصدع، تعمقت وحدانيته فاضحى هاضما لمأساته مبتلعا لحيرته. سيما بعد لقاء فرح، الفاتنة القادمة من أزمور لتحترف الغناء، لكن ثقل الزمان أطفأها في أيام حالكة بمدينة كبيرة كالدار البيضاء، فأضحت الجوهر المفقود الآخذ في جدل الحضور والغياب.

يظهر السارد، وثمة حكاية يعجت بها الذاكرة، فلا تصبح ممتلئة إلا في مرآة يرى من خلالها حكايات الآخرين، يغيب نفسه باستمرار فيزيقيا وسيكولوجيا، معلنا قراءة الأخير، من حيث كونه غير محتضن لأية علامة، إلا فيما يربطه من خيوط شائكة مع مجاري حكايات تنعكس مراويا عليه، وتلك خاصية أسلوبية متفردة تعمل على صناعة مزية للتخييل وتؤسس لمتخيل يهدم الآن بناءه، ويقوم بإعادة بنائه عبر انشغاله بتفاصيل الآخرين.

تلمح هذا المنحى العميق من ذاكرة الإنسان المغربي وتراثه، كما تلمس ذلك التأمل المضني في وعيه الجمعي وما يحفل به من كل شيء أصيل وتراثي، من حيث كون النص لا يكف عن دغدغة وكشف لاذع وساخر للطابوهات المجتمعية وللمستور في الأنساق الثقافية، يمتد السرد ويغوص في إدانته لكل صور القبح ومظاهر الشذوذ ولأخطبوط القيم الفاسدة الذي راح يتداعى، وفي هوامشه يظل السارد باحثا عن الجوهر المأمول.

نبد أن اللافت للنظر في المروي بشكل خاص، هو بلاغة الخوض في التفاصيل، كل التفاصيل ويشتى طرائق الاشتغال الفنية في السرد.

يبرز بجلاء أن خاصيات، من قبيل الهيكل الروائي والتفكير الاستعاري وانسياب اللسان العامي وجرأة الكشف، كانت كلها استراتيجيات عملت على رسم صورة جمالية لإيقاع التفاصيل في رواية "فرح"، إلا أن الواضح حين التأمل في طياتها أن ثمة عناصر أسهمت إلى حد بعيد في تفكيك الكلي، وبشكل دقيق في إغناء البعد الاستيتيقي للالتفات السائر نحو التفصيل.

نطمح إلى الإحاطة بجوانب من جمالية هذه التفاصيل في هذا المنجز الروائي من خلال مقاربة المستويات الآتية:

شعرية التفاصيل (تقاطعات الواقعي والمتخيل)

ثمة في رواية "فرح" نوتة تصدح فعل التلقي لتزج به في شرك المشترك الذي انصهر معه الواقعي في التخييلي، فالحكاية بمجرد ما ترسو بميناء النص تصبح كسفينة بشراعين، حينا تجري مع تيار الواقعي والمرجعي، وحينا آخر تعاكس هذا التيار، معتنقة رحاب التخييل في آفاق رمزية واعدة. وفي شكل جدلي راح معه السارد يصور قداسة الرموز وجبروت السلطة، في مجتمع لم تلتئم فيه جراح الحاجة المدوخة ولم تسكت فيه صرخات الرغبة. ويستمد الموضوع طاقته من المرجعية التاريخية والسياسية ومن القدرة على استثمار المتخيل التاريخي وتطعيمه بمرات التفصيل في براديغم سردي، يسمه البذخ في المروي ويقويه الثراء في التجزيء.

من الأفيد القول إن ما ساهم في ذاك النزوع البليغ نحو التفاصيل هو مزاوجة المنجز الروائي هذا بين عالمين: عالم إنساني يخترقه المألوف، ويصب في الكسموس الإنساني. وعالم حيواني يجنح نحو التخييل في سرية سردية، تحاول الكشف عن القرابات بين العالمين معا، قرابات تفضح الكائن وتخيل الممكن، وقد أتاح الوصف والمونولوج تخوما كثيرة للتوغل بعيدا في تفاصيل الواقعي الإنساني والمتخيل الحيواني.

يوسف فاضل

يقع السارد على أدق الجزئيات، يلتقط الأشياء والأحاسيس والأفكار في مشهد متناسق، تطلع منه بذرة المعنى ولا تكف عن النمو. يصف كل شيء، يلامس أتون العناصر ويفجرها في أسلوبية تكسوها الدلالات من شتى الجهات. إن هذه الممارسة الوصفية وجعلها تترنح في أرجوحة من المعاني، تجيء إيابا وذهابا بذائقة المتلقي، هو ما أضفى على هذا النص بعدا جماليا، بحيث لا تصير تلك التفاصيل إنشائية محضة، تعمل على تعطيل السرد، بقدر ما ترسم مشهدا متناسقا عامرا بالدلالات.

• توليد السؤال والارتهان للشك.

يبدو إيقاع النص مثقلا بالسؤال، مشحونا بالاستفهام، وهذا واضح في لمحة بصرية لهذا المنجز، بيد أن هذا الاستفهام لا يقود إلى امتلاك أجوبة شافية، إنما يقود نحو الارتياب الذي ينحو منحى التفتيت والتشريح بحثا عن الدلالة التاوية خلف الخطاب والمنفتحة على التأويل. وهنا تصل التفاصيل مداها فتتردد الشكوك، ليحيل النص معها بكثير من الاعتقادات والاستطرادات، لا واحدة منها حقا، فيعمد السارد إلى التدقيق في الأشياء وفي الشخصيات وفي الأمكنة، حتى يلامس فروة الدلالة عبرها ومن خلالها.

• المستمر، اللا متناهي وأفق القراءة.

اللافت للنظر أن سنارة الرواية لم تسدل ويصبح كل شيء مشرعا على القراءات، فبعد موت "فرح" شهدت الحكاية ميلاد "فرح" من جديد، كان في الممات حياة، هكذا يعمل النص على توسيع آفاق القراءة من خلال انفتاحه على كل التأويلات المتاحة، ويخلق لشرعية أنطولوجية تمخضت من رحم المعاناة. في لوحة تحتلي بالأصيل وتنبش في التراث وتتمسك بالحياة رغم كل المآسي.

كيكا لا زال يعيش على وقع أحلامه وخديجة لا زالت تهذي وعبد الله لا زال متوغلا في آثامه، والمسجد لم يدشن في وقته، والبناء لم يكن تاما، بل ظهرت في سقفه الشقوق.

إن العمل على ترك المرويات مشرعة من دون نهايات محددة، إنما للإشارة إلى البحث المتواصل عن القيم الحقة، ذلك أن كل شيء انطلق في الرواية زائفا وانتهى زائفا إلا حقيقة موت "فرح"، ودونها تظل كل تلك الحيوات في صراع أبدي تتخلله دسمة تفاؤلية محتشمة.

صفوة القول إن أرقى ما وسم إيقاع الاستمرار في مضايق السرد هنا، هو النواءات المحكي تلك التي تظل قابعة ومجردة، لا تكف عن اختبار الاجتماعي في مجهر المعاينة، ووضع القيم في محك الحقيقة، للتعبير عن بحث متواصل قوامه انتفاء النهايات.